الفصل الرابع

الخطاب الدعوى

بين التهييج والتنهيج

التهييج ، هو العملية التى يُقصد بها ، أنها محاولة خلق إرادة الفعل عند الغير من خلال إيقاعهم تحت خطاب مؤثر قوى مؤقت ، وليس بالضرورة أن يتناسب منحنى التغير الذاتى الداخلى مع متطلبات هذا الفعل ، كما أنه قد لا يتجاوز هذا الفعل أكثر من استحداث طاقة عالية من الانفعال والتأثر الوقتى .

والتنهيج ، هى عملية القصد بها خلق إرادة الفعل عند الغير من خلال إيقاعهم تحت خطاب مؤثر قوى وبطئ ، ومن خلال الانتقال بالغير من درجة ما أو مستوى إلى آخر ، ودون قفز إلى مستويات معينة ، كما أن العلاقة بين جميع المستويات علاقة تصاعدية . وبالتالى فمن المتوقع أن يتحرك منحنى التغيير من داخل النفس ، باستيعاب واكتساب مقتضيات كل مستوى كل حدة .

فخطاب التهييج ، يهدف إلى إثارة رد فعل سريع وفورى من قِبَل الجماهير ، إزاء معنى معيّن ، أو حدث معيَّن ، أو شخص أو جهة معيَّنة ، وبغض النظر عن درجة الاستجابة المتوقعة ، فضلاً عن توابعها ومتابعتها .

أما خطاب التنهيج ، فهو ينطلق ضمن خطة ، قد تكون طويلة المدى ، ولا يجوز الانتقال من خطوة إلى التى تليها قبل اعتماد درجة الإنجاز فى هذه الخطوة .

فخطاب التهييج ، بالإمكان من خلاله أن نُبكى الجماهير على درجة تقصيرها - وعلى سبيل المثال - من خلال تصوير مدى العذاب الذى سيلاقيه المقصِّرون ، ومدى هول جهنم وعذاب الآخرة ، ولكن لا ندرى ما نتيجة ذلك الانفعال بعد ذلك ، وما مستقبله لعدم المتابعة .

ولكن خطاب التنهيج ، هو الذى يأخذ بأيدى المخاطَبين ، خطوة خطوة ، نحو اكتساب مقامات الطاعة ، ومهارات الطائعين ، وبما يباعد بينهم وبين جهنم وعذابها .

كذلك خطاب التهييج بإمكانه أن يصنع انفعالاً غاضباً ، ضد حَدَث أو خصم أو قوى معيَّنة ، ومن خلال قوة تعريته أو الكشف عن سوآته ، ولكن لا يكفى هذا الإحداث ، لإحداث الرغبة فى التغيير من داخل الناس ، فضلاً عن تنظيم عمل ما يتناسب مع هذا الانفعال ، فضلاً عن القناعة ، بأنك البديل فى كل الأحوال .

ومن ثَمَّ فبإمكانك اتقان دور المعارض ، ودور المهيج ضد قوى معيَّنة ، والقيام بتعبئة لصالح قوى أخرى ، ولكن ليس من السهولة ومن خلال إتقان هذا الدور فقط ، أن تقود الجماهير ، أو مجتمع ما لإجراء التغيير المناسب .

ولكن من خلال خطاب يكسب الناس آليات تغيير أنفسهم ومجتمعهم ، إنه ذلك الخطاب المنهجى الذى يتعهدهم بالحكمة والتزكية .

وحينما نقرأ قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) . نشعر بجهد ضخم وآليات قوية وطويلة المدى لا بد أن تتجاوز حدود هذا الفعل التهييجى الوقتى ، وليشمل خطاب الرسول أو الداعية ، تلك الآليات والعمليات المنهجية ، والتى ربما تستوعب الزمان والمكان ، وإلا فما هى تلك الحدود التى تستوعب : عمليات تلاوة آيات الله .

عمليات التزكية .

عمليات تعليم الكتاب والحكمة .

وبدون منهج أو خطة واضحين المعالم .

---

(١) الجمعة : ٢

ولقد افتقدت الدعوة الإسلامية المعاصرة ، كثيراً من آليات هذا الخطاب المنهجى ، وعانت من العشوائية والارتجال ، « فالدعوة ليس لها استراتيجية ، ولا خطوط ولا مؤسسات ، وإنما هى ارتجال وردود فعل لما تطرحه مؤسسات الإعلام المحلية والعالمية ، واستجابات أشراطية منفعلة كاستجابات الحمية القَبَلية . وأساليب الدعوة تقتصر على الخطابة والموعظة غير الحسنة القائمة على الانفعال والارتجال ، الجاهلة بالنفس البَشرية ومفاتيحها ، وليس هناك مؤسسات لإخراج مَن يدعو بـ « الحكمة » وإعداد الموازين لمتطلبات العصر . وليس هناك مؤسسات لإعداد المفكرين المتخصصين بـ « الجدال الحسن » الذين يخاطبون الفكر الإنسانى كله بـ « أحسن » مما عنده . وليس هناك مؤسسات لـ « شهود » ما يجرى فى قرية الكرة الأرضية ، و « قراءته » قراءة راسخة محيطة تمهد لـ « حكمة » التخطيط والتنفيذ .

ليس هناك شئ من هذه المؤسسات والاستراتيجيات ، بل الأمر متروك للكر والفر الفكرى - الخطابى - وللجهود الفردية » [1] .

فكان من الطبيعى أن يأتى الخطاب الدعوى انعكاساً لتلك العشوائية وذلك الارتجال ، فاعتمد إلى درجة بعيدة على التهييج والإثارة ، ولتحقيق مكاسب جماهيرية سريعة على أرض الصراع والتحديات ، ونحو حمل الناس سريعاً على هضم المشروع الإسلامى والتجاوب مع دعاته .

فهو تارة يلعب على وتر الكشف عن فساد الأنظمة ، وانحراف المجتمع ، وتارة يلعب على وتر مدى مخالفة الحكم والنظام لأوامر الله وعدم الحكم بالشريعة ، وتارة يُعرِّض بفساد الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، فضلاً عن الإسراف فى الكشف عن المؤمرات التى تحاك بالإسلام ، والظلم الواقع على

---

(١) إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها - للدكتور ماجد عرسان الكيلانى (س . ك . الأمة) .

الإسلاميين والدعاة ، ومدى ما يتلقونه من عسف واضطهاد وفى جو ملئ بالانفعال والإثارة .

ولا بد أن نقر ببعض العذر لذلك الخطاب ، وذلك نظراً للمناخ المتوتر التى تحركت فيه الدعوة والدعاة وخاصة فى العقود الأخيرة . وإن كنا لا ننكر فى نفس الوقت مدى مسئولية الدعاة فى خلق هذا المناخ .

* *

فهناك حاجة إذن - وحتى تكسب الدعوة الإسلامية ، على مدى قريب أو بعيد - أن يتحول الخطاب الإسلامى من صيغة التهييج إلى روح التنهيج والمنهجية - ومن مجرد إثارة عواطف الناس من أجلنا إلى اطلاعهم على حقيقة تصورنا وعمق وواقعية نهجنا . ولكى يكتسب خطابنا هذه الخاصية الملزمة ، لا بد من مراعاة واستيعاب عدة شروط :

أولاً : لا بد أن تتضح الرؤية لدى الدعاة لمنهج تغيير واقعى ، لا يصطدم بالثوابت الشرعية ولا بالسنن الكونية ، ولا يحكمه زمن معيَّن فى تحديد المراحل ، لأن ذلك مرتبط بإرادة اللّه ، وإنما الذى يحدد انتقالنا من مرحلة إلى أخرى ، ظهور وتحقق أهداف المرحلة التى نحن بصددها .

ثانياً : وفى سبيل التنهيج ، على خطابنا الدعوى الجماهيرى ، أو التربوى ، أن يكون مناسباً للواقع التى تعيشه الجماهير ، ولواقع المرحلة التى تمر بها الدعوة على المستوى العام ، ولقدرات وإمكانيات الدعاة ومَن يتلقون عنهم .

ثالثاً : وفى سبيل ما سبق ، من الضرورى عدم ضغط المراحل ، بمقتضياتها أو أهدافها .

رابعاً : ومن عدم الضغط فى المراحل ، لا بد من التدرج وخاصة و « أن التغيير الفجائى يُحْدِث فى الجسم الحى اضطراباً قد تكون له آثار سيئة على صحة الجسم ، والتدرج من الداء إلى العافية فى مراتب متعاقبة هو سُنَّة اللّه فى خلقه .

على أن هذا التدرج لا ينبغى أن يكون متروكاً للصدفة ، بل ينبغى أن ينتظم فى خطة مدروسة هى من أكبر مهمات الفكر الواقعى ، وتكون هذه الخطة ذات محورين متكاملين : تدرج فى استبدال الصورة الواحدة بالانتقال فيها من الأدنى إلى الأعلى حتى تبلغ التمام ، وتدرج فى استبدال مجموعة الصور بتقديم ما هو أصل على ما هو فرع تأسياً فى ذلك بالرسول الأكرم ﷺ حينماأنفق ثلاثة عشر عاماً فى معالجة العقيدة ، ثم انتقل إلى معالجة ما هو فرع لها من السلوك العملى » (١) .

خامساً : ومن عدم الضغط فى المراحل ، عدم ضغط أساليب التغيير ، فمن طور الحكمة والموعظة الحسنة ، والصبر والصفح مع المناصحة ، إلى إضافة لأساليب الأخذ القوى والأخذ على يد المعاندين فضلاً عن المتجبرين فى طور آخر.

ونجد أن بين التعامل من منطلق قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (٢) ، ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣) ، وبين التعامل من مقتضى قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٤) ، بون شاسع ، وطريق طويل ملئ بالانفعالات وأدوار من الصبر والابتلاء والبناء والانصهار .

سادساً : ومن التنهيج ، التأهل بالقدرات الأساسية للخطاب ، وخاصة فقه العلوم الشرعية ، وحتى يتجاوز خطابنا كثيراً من السطحية ، فى الحكم على الأشياء وفهم الأمور وتصورها ، ومن ثَمَّ القدرة على الاجتهاد للتفاعلات والوقائع ، وحتى نملك على الناس قلوبهم ونفوسهم ، لا بد من الإلمام بثقافة العصر ، وقبل ذلك ومعه ، الإلمام بضروب الحكمة وفصل الخطاب .

---

(١) دور الفكر الواقعى فى النهضة الإسلامية للدكتور عبد المجيد النجار .

(٢) آل عمران : ١٥٩ (٣) فصلت : ٣٤ (٤) الحج : ٣٩

سابعاً : ومن التنهيج أنه لا بد من استيعاب الواقع ودراسة العوامل النفسية والاجتماعية التى تحكم هذا الواقع . لكى نضع أيدينا على عمق الخلل ، واقدار الخير ، ومفاتيح الحوار ، وجاذبية الخطاب : « إن الواقع الإسلامى يشتمل على عنصرين أساسيين : عنصر هو الإنسان ، وعنصر هو المنهج الذى يسلكه ذلك الإنسان . فمعرفة الإنسان تكون بتحليل وفهم البنية النفسية والفكرية للإنسان المسلم فى عالم اليوم ..... ، ومعرفة المنهج تكون بإدراك حقيقة ما يعمر أذهان المسلمين من قناعات فكرية وعقدية ، وإدراك حقيقة ما يجرى عليه سلوكهم من نظم فى شتّى المجالات ، لا بد على سبيل المثال أن نستوعب مقولة الجبر ، وظروف اعتناقها ، والأوضاع الاجتماعية والسياسية التى أحاطت بذلك الاعتناق » [1] .

ثامناً : ومن منهجية الخطاب ، التمييز بين الحق والباطل ، وكما يقول الدكتور عبد المجيد النجار : « والمجتمع الإسلامى اليوم لئن كان وريثاً لعهود الانحطاط إلا أنه حافظ على قدر من المبادئ الإسلامية وهى التى نهضت فيه الحركة لإصلاح المجتمع نفسه ، كما اتصل بالحضارة الغربية السائدة اليوم ، فاقتبس منها فى حياته العملية صوراً من الحق كما اقتبس صوراً من الفساد ، ولذلك فإنّه من الضرورى أن يتجه الفكر الواقعى إلى تمييز ما هو حق مما هو باطل حتى يكون الأول أرضية تثبت عليها الأقدام فى تغيير الثانى » [2] .

لقد كان من عناصر الإثارة والتهييج ، محاولة رمى ممارسات المسلمين - الإسلامية - جملة بالخلل ، وبالرفض الجملى لواقع حياتهم ، وإشعارهم بأنهم قد قارفوا الكفر ، أو كادوا . وفى محاولة لإثارتهم على أنفسهم أو إثارة البعض على الكل . وبالتالى فلا حوار ، ولا التقاء فى منتصف الطريق ، وإما قبول الإسلام كلية ، أو تركه كلية .

تاسعاً : ومن التنهيج ، اعتماد منطق الحوار ، فى خطابنا ، وإتاحة الفرصة

---

(١) ، (٢) دور الفكر الواقعى فى النهضة الإسلامية - للدكتور عبد المجيد النجار .

للباطل بأن يدافع عن نفسه ، وتفريغ مبررات التمسك الكامنة بداخله ، وبالتالى اكتساب القدرة على إحلال الحق ، بإعطاء صور الحق الداحضة لهذا الباطل .

ولا بد أن ينسحب هذا الحوار مع الواقع ككل ، وكما لا بد - فى نفس الوقت - من إعداد النفس لتقديم البديل المناسب ، وحتى لا يكون منطقنا الحوارى تجريدياً أو صورياً ، عاجزاً عن تهيئة النفوس والعقول للمضى فى طريق الحق ، بعد إقناعهم بفساد واقعهم .

« إن الدعوة إلى التغيير دون تقديم للبديل من أكبر عوامل الفشل فى التغيير ، بل لعلها من أسباب التمسك بالواقع - إذ يقع فى نفوس مَن سيطر عليهم ذلك الواقع أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، فتنشأ نزعة التبرير التى تسعى إلى إكساء الباطل شرعية الحق بمنطق الواقعية المنحرفة ، وذلك ضرب من ضروب دفاع الباطل عن نفسه استغلالاً لفطرة الإنسان التى تركن إلى ما هو معروف بمواصفاته الشخصية وتنفر مما هو مجهول أو ما هو معروف بمواصفاته العامة . ومن أكبر الأخطاء التى وقع فيها الفكر الإسلامى الإصلاحى الحديث أنه دعا إلى التغيير ولكنه لم يشخص البدائل التى يريد أن تسود حياة المسلم » [1] .

* باختصار ، فإنه لكى نوفق بين اكتمال التنزيل ، وحالة المجتمعات ، ومنهجية وواقعية الخطاب ، علينا أن نراعى عدة اعتبارات عند المتلقى فرداً كان أو جماعة :

أولاً : مراعاة درجة اكتمال الرشد والإدراك بأمر التنزيل عند المتلقى : « خاطِبُوا الناس على قدر عقولهم » .

ثانياً : مراعاة درجة الإذعان والامتثال للأمر الإلهى ، وبقدر القدرة على رفع مستوى ذلك الامتثال ، بقدر ما ندفع إليه بجملة جديدة من الأوامر والنواهى وضوابط الالتزام ، وذلك لن يتأتى إلا باعتماد عدة آليات مثل مبدأ التدرج ، وأفق الحوار ، وآليات الإقناع والحكمة والموعظة الحسنة .

---

(١) المرجع السابق .

ثالثاً : مراعاة درجة تخيل - المتلقى - إمكانية الإتيان بالفعل أو الامتناع عنه ولذلك شرعت القدوة وللتأسى بها فى إمكانية العمل والتطبيق « صلُّوا كما رأيتمونى أصلّى » ، ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (١) ، وكذلك أهمية استفراغ الوسع فى تقديم البديل المناسب لتعبيد طاقات ورغبات الإنسان المتفرقة : « إنَّ فى ديننا فسحة » .

عاشراً : وأخيراً نأتى على شرط أساسى ، ألا وهو رأس الأعمال ، كما أنه بدونه لا جدوى من تحصيل ما سبق ، إذ لا بد من استيفاء الشروط الإيمانية ، والخصائص التى تضفى الربانية على الخطاب ، من ديمومة الصفاء ، وإشعاعات الإخلاص ، ونورانية التقوى ، وجاذبية الروحانية الاجتماعية ، مع فراسة المؤمن، وشفافية الملهم ، وقداسة المحراب .

قال تعالى : ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ (٢)

* * *

(١) الأحزاب : ٢١ (٢) سورة ص ١٧ - ٢٠